تفسير
سورة الكوثر

تفسير سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا أعطيناك الكوثر(١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)

(١)
عمود السورة وربطها بما قبلها وبما بعدها

قد مر في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباءوا بالويل واللعنة، وحق لهم أن يسلبهم الله هذا الخير ويعطيه من استحقه حسب سنته، كما قال: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [سورة محمد/٣٨]. وكأن الله تعالى ينزع ولاية الكعبة من الخائنين. فبهذه السورة بشر الله تعالى نبيه بأنه اصطفاه وأمته لولاية بيته المحرم، ومسكن خليله وذريته التي يبارك بها الأمم، كما جاء في التوراة. ولذلك سمى الله تعالى هذا البيت: ﴿مباركا وهدى للعالمين﴾ [سورة آل عمران/٩٦].

ولا شك أن هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر. وهو الضمان للحوض الكوثر الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة. فموضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المهلكين. وذلك أسلوب عام في القرآن.

ذلك، ولما كانت السورة التالية في إعلان الهجرة من جوار بيته حسن في نظم الكلام تقديم سورة التبشير والتسلية، ليدل القرآن بنظمه على أن الله تعالى قضى باليسر قبل العسرة وإن كان وقوعه بعدها. فترى أن إعلان الهجرة الذي تضمنته سورة الكافرون وضع بين سورتي التبشير، أعني سورة الكوثر، وسورة النصر. ثم لما كانت هذه السورة بشارة للنبي بكثرة أحبائه، وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت سورة الكافرون بيانا لأصل هذه المقاطعة: وهو التوحيد الذي بنى عليه هذا بيت الله الواحد. فهذا إجمال القول في عمود السورة وربطها. وأما الاطمئنان بما ذكرنا فيرجى من تفصيل يتبعه.

(٢)

تفسير كلمة كوثر وتأويلها

اعلم أن تأويل هذه السورة مخبوء تحت كلمة "كوثر". فالأولى أن نبحث أولا عن معناها. وقد اختلف فيه أقوال السلف رحمهم الله، فلابد من بسط الكلام حتى يتبين القول الراجح والتأويل الواضح. والله تعالى هو الموفق للسداد.

لا يخفى أن "الكوثر" مبالغة الكثير. فهو ذو كثرة عظيمة وبركة وثروة. فإن الكثر هو الثروة. وقد سموا به الرجال، كما سموهم بكَثِير وكُثَيِّر. وترى استعماله على طريق الصفة في قول لبيد:

وصاحب ملحوب فجعنا بموته ... وعند الرداع بيت آخر كوثر[1]

[1] ديوانه: ١٠١ واللسان (ردع) وابن هشام ٢: ٢٧ .

وفي قول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

يحامي الحقيق إذا ما احتد من ... حمحم في كوثر كالجلال[1]

فاستعمل الصفة بتقدير الموصوف، أي في غبار كوثر. وقد جعلوا منه فعلا، كما قال حسان بن نشبة:

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم ... وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا[2]

فالكوثر ههنا من جهة اللسان محتمل لثلاثة وجوه من التأويل:

الأول: أنه منقول إلى الاسمية، فصار مختصا بشيء سماه الله تعالى بالكوثر.

والثاني: أنه صفة قدر موصوفها، فصار له بعض التخصيص، كقولهم "مرد على جرد"[3] أي رجال مرد على خيل جرد. وكقوله تعالى: ﴿والذاريات﴾ أي الرياح الذاريات، و: ﴿ذات ألواح ودسر﴾ [سورة القمر/١٣]، أي فلك ذات ألواح ودسر. وهذا كثير في القرآن وكلام العرب. ولكنه لا يوجد إلا إذا كانت الصفة خاصة بالموصوف، فيفهم من ذكر مجرد الصفة، أو دلت على الموصوف قرينة أخرى.

والثالث: أنه وصف باق على عموم معناه كأسماء الصنف التي تقع على القليل والكثير، ولا تختص. وحينئذ يكون من جوامع الكلم، ويحتمل كل ما كان فيه خير كثير، ويحمل حسب القرائن على بعض الأفراد.

[1] أشعار الهذليين ٥٠٤ وابن هشام ٢: ٢٧ .

[2] شرح الحماسة للمرزوقي: ٣٣٨ واللسان (كثر) .

[3] ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى من قصيدة له في الأصمعيات: ١٢٩ .

ومرد على جرد شهدت طرادها ... قبيل طلوع الشمس أو حين ذرت

واعلم أن أصل ما نتمسك به في تأويل "الكوثر" هو نظم السورة، وموقع آياتها، ورباط معانيها، وحسن تأويلها، كما يتبين لك من النظر في الفصول التي بعد الفصل السابع. وأما ذكر الوجوه الأخر، وتطبيق الروايات، فلرفع الشكوك عمن قل اعتناءه بمحاسن النظم ومعاني التأويل. وبعد ذكر هذا التمهيد نذكر أقوال السلف في تأويل "الكوثر".

(٣)
أقوال السلف في تأويل الكوثر

ذكر ابن جرير رحمه الله في تأويل "الكوثر" ثلاثة أقوال:

الأول أنه نهر في الجنة. وروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وابن عباس، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم أجمعين، وعن مجاهد، وأبي العالية رحمهم الله.

والثاني أنه الخير الكثير. وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبير، وعكرمة، و قتادة، ومجاهد رحمهم الله.

والثالث أنه حوض في الجنة. وروى ذلك عن عطاء رحمه الله[1]. ولا أرى فرقا بين القول الأول والثالث.

وسمي بالحوض في الموقف وبالنهر في الجنة[2]، فإن ذلك الحوض من ذلك النهر الجاري.

---

[1] انظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢٠٨.

[2] انظر الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢١٠، وابن كثير ٤: ٥٦٠-٥٦٢ .

ثم روى عن عكرمة، الذي قال إنه الخير الكثير، أيضا أنه النبوة[1]. وفي رواية أنه القرآن، وأنه الحكمة، وأنه الإسلام[2].

واختار ابن جرير رحمه الله بعد ذكر هذه الروايات أنه اسم نهر في الجنة[3] معتمدا على روايات عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، ولم يتجشم للتطبيق بين هذه الأقوال، مع أن القائل بالقول الثاني هو القائل بالقول الأول. وكذلك منهم من قال بالقول الثاني ثم قال تارة أنه القرآن والحكمة، وتارة أنه الإسلام والنبوة.

ثم يعلم من الروايات أنهم كانوا يعلمون أن الكوثر نهر في الجنة، وقد أخبر به النبي الكريم ﷺ وعرفه لهم. فكيف يختلفون بعد العلم؟ لاسيما هذا حبر الأمة وترجمان القرآن، وتلميذه عكرمة. فلابد من التأمل في كلامهم ليتخلص لنا لباب الحق خاليا عن التعسف.

(٤)
مآخذ أقوالهم وأن مرجعها إلى أمر جامع

اعلم أن من أراد من الكوثر ههنا نهرا في الجنة أو حوضا في الموقف فقد جعله اسما منقولا عن الوصفية. واعتمد فيه على ما أخبر النبي ﷺ عن الكوثر الذي يعطيه الله في الآخرة.

ومن أراد أنه "الخير الكثير" إما بتقدير الموصوف. وهو "الخير"، فإن

---

[1] الطبري ٣٠: ٢٠٨ .

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق ٣٠: ٢٠٩ .

الموقع موقع ذكر النعمة وإما بجعل الصفة نفسها خيرا كثيرا. ومآلهما واحد. فالظاهر أنه تمسك بوجوه:

الأول: أنه لو كان منقولا إلى الاسمية لجاء نكرة مثل "سلسبيل" و"تسنيم" و"عليين" و"سجين" و"غسلين" ولعرفه القرآن، لكونه عربيا مبينا والتسمية وضع جديد. فاستعمال الكوثر بلام التعريف، مع أنه اسم لشيء لم يعرفوه، يخرج القرآن عن العربي المبين. فلا يحتمل التسمية على طريق النص، ولكن يراد منه شئ فيه الخير الكثير على سبيل التأويل.

والثاني: أنه من عادة القرآن ذكر عطايا الآخرة بصيغة المستقبل أو بما يدل عليه مثل قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [سورة الضحى/٥] و﴿يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [سورة الإسراء/٧٩].

والثالث: أن إبقاء اللفظ على عمومه يجعله أوسع وأجمع، والقرآن أنزل جم المعاني. ثم الكوثر نفسه يقتضي الوسعة. فالاقتصار لا يوافقه.

ثم اعلم أن من أراد أنه الخير الكثير لم ينكر الخبر الذي جاء في كوثر الآخرة. إنما جعلوه عاما وسيعا. ثم بعد ذلك حملوه على نهر الجنة من عطايا الآخرة ومن العطايا الموجودة الآن على القرآن والحكمة والنبوة والإسلام على سبيل التفصيل، لا على جهة التسمية والتعيين. فذكروا أكمل الأفراد مع إبقاء اللفظ على عمومه.

ومن عادتهم التفسير بالقرآن. فحملوا الكوثر على القرآن، لما وصفه الله بالمبارك، وعلى الحكمة لقوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [سورة البقرة/٢٦٩]. ولا فرق بينهما، فإن القرآن جامع للحكم، وعلى النبوة، لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعلمين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٧]. وهكذا الإسلام. بل الإسلام. يشمل الخلق كله،

لقوله تعالى: ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض﴾ [سورة آل عمران/٨٣]. فهذه الأقوال كلها مأخوذة ومستنبطة من القرآن. ومآلها إلى أمر واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

وأما ما ذكر الإمام الرازي رحمه الله من كثرة الأولاد، والعلماء، والأتباع، والفضائل، ورفعة الذكر، والخلق الحسن، والمقام المحمود، وهذه السورة، وجميع نعم الله[1]. وهذا الآخر نقله عن ابن عباس ﵄. فبعضها يرجع إلى ما قدمنا وبعضها لا يناسب لفظ الكوثر، ومع ذلك كلها داخل تحت عموم اللفظ. ولكن تفسير السلف أقوم وأوضح استنباطا.

والمقصود مما ذكرنا أن ههنا مذهبين فحسب، لا مذاهب كثيرة كما يظهر بادي الرأي. وهو أن الكوثر إما هو شئ خاص بعينه من حوض أو نهر أو حكمة أو قرآن وأمثال ذلك، أو هو عام يشمل كل ما كان ذا خير كثير.

ومعتمد القائل بالتعيين أن النبي ﷺ سماه بهذا الاسم[2]. ومعتمد القائل بأنه يشمل النهر وغيره تطبيق خبر النبي بالقرآن. فأولوا القرآن حسب مقتضى عبارته. ثم أولوا ما جاءهم عن النبي بما لا يخالفه. فهذا جمع بين التأويلين. فإنه لا تباين بين العام والخاص.

وكذلك جمع سعيد بن جبير بين قولي ابن عباس ﵄، كما روى

---

[1] انظر التفسير الكبير ٣٢: ١٢٣-١٢٨ .

[2] انظر الجامع الصحيح ، للبخاري ، كتاب التفسير ، رقم الحديث: ٤٩٦٤. وكتاب التوحيد ، رقم الحديث: ٧٥١٧، ورقاق ٥٣؛ والجامع الصحيح لمسلم ، الصلاة: ٥٣؛ والترمذي ، تفسير: ٩٧. والمسند ٣: ١٠٢ .

ابن جرير قال: "حدثنا أبو كريب قال ثنا عمر بن عبيد عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه ابيض من الثلج وأحلى من العسل"[1]. وروى أيضا، وهكذا في صحيح البخاري: قال: "حدثني يعقوب قال ثني هشيم قال أخبرنا أبو بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر، فقلت لسعيد بن جبير: فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة. فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه"[2]. فهذا توفيق بين القولين توفيق الخاص والعام.

ثم إن أمكن التوفيق التام بين القرآن والحديث بأن يقال أن الكوثر الذي أعطاه رسوله في الدنيا هي التي في الحقيقة حوض في الموقف ونهر في الجنة كان ذلك أحسن توفيقا. وقد وجدناه أيضا أحسن تأويلا. ونذكره في الفصول الآتية بعونه تعالى.

(٥)

اللوامع الدالة على أن الكوثر هو الكعبة وما حولها

قد ظهر مما سبق أن السلف رحمهم الله لم يختلفوا في كوثر الآخرة. ولكن حملوا اللفظ على العموم، وراعوا صيغة الماضي. فذكروا ما يدخل

---

[1] تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧ .

[2] المرجع السابق ٣٠: ٢٠٨، والجامع الصحيح للبخاري ، كتاب التفسير، رقم الحديث: ٤٩٦٦. ورقاق ، رقم الحديث: ٦٥٧٨ .

في مدلول هذا الاسم، ليكون اللفظ عاما وسيعا كوثرا في دلالته.

ولذلك ساغ للمتأخرين من المفسرين التماس أمور أخر غير ما روى عن السلف. فلو كان القول فيه بدعة وضلالة لسكتوا، ولسكت السلف و لم يختلفوا.

فإن التمست قولا يجعل الكوثرين واحدا لم أرني مخالفا للسلف، كما أني لا أراهم مخالفين بعضهم لبعض بيد أنهم جعلوا الكوثر عاما فحملوه على حوض أو نهر في الجنة، وعلى غيره مما فيه الخير العظيم من القرآن والحكمة والإسلام والنبوة من غير رعاية مناسبة بالحوض أو النهر.

وأما أنا فأحمله على ما هو أشبه شئ بحوض أو نهر وصفه النبي ﷺ، وكشف له في ليلة المعراج. فإن الله تعالى أراه فيه حقائق أمور أخر وروحانيتها من الأمور التي في الدنيا، فكذلك أراه روحانية الكوثر الذي أعطاه في الدنيا. وكان النبي ﷺ ربما يصرح بما يكشف له، كما قال في أمر سورتي البقرة وآل عمران أنهما تاتيان كغمامتين[1]، وأن الدنيا تأتي كعجوز شمطاء، وأن الموت يأتي في صورة كبش. وربما يكتفي بالإشارة لكي يتفكروا ويستنبطوا، فيكون تعليما وتربية لعقولهم. فإن لم يبلغنا التصريح منه عليه الصلاة والسلام بأن الكعبة تكون يوم القيامة حوضا كوثرا فقد دلنا بإشارات، وقد رغبنا في التفكر والتوسم.

والآن نذكر ما كشف لنا من اللوامع الدالة على ما ذكرنا.

الأولى: أن النفوس لها شوق إلى الرب. ولا تطمئن ببعدها عنه.

---

[1] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة رقم الحديث: ٨٠٤ ، وانظر ابن كثيرا: ٣٢-٣٣ .

وهذه الفطرة منشأ الديانات في الناس، حتى لا تخلو عنها أمة. وما يعبر عن هذا الشوق الروحاني غير "العطش". وكثر في الزبور هذا التمثيل. فإن صح ذلك فالموحدون عند الحج لأشبه شئ بالعطاش المجتمعين عند حوض بعد مقاساة الظمأ الشديد. فالكعبة لهم في الدنيا هي كالحوض الكوثر الذي يردونه في المحشر.

والثانية: أن النبي ﷺ شبه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه قال عليه السلام: "أ رأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا"[1]. فهذا تمثيل من جهة أخرى للماء. فإن الماء كما أنه رواء فكذلك هو طهور. ولا شك أن مورد صلواتنا هذا البيت الذي بمكة فكأن له جداول في كل مكان يصلون فيه.

والثالثة: أنه كما تستعلن كثرة هذه الأمة على الأمم عند الكعبة فكذلك تكون عند الحوض. ولا شئ أدل على كثرة هذه الأمة من اجتماعهم في موضع واحد. وإن هذا الاجتماع لأدل على كثرتهم لعلم الناس بأن هذه الجماعة إنما هي قطرة من بحر أمته الممتد على بسيط الأرض. فكما تتضح زيادة هذه الأمة على أمم النبيين الآخرين في القيامة عند اجتماعهم على الحوض، فكذلك ترى كثرتهم حول الكعبة في الموسم. فاسم الكوثر أظهر مطابقة بهما.

والرابعة: أن النبي ﷺ أخبر أنه يعرف أمته على الحوض بآثار الوضوء[2]. ففيه إشارة إلى أن الذين يردون هذا البيت بقلوبهم هم الذين

---

[1] كتاب مواقيت الصلاة ، رقم الحديث: ٥٢٨ .

[2] كما جاء في حديث طويل رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: "إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء".

يردون في الآخرة ذلك الحوض الذي هو حقيقة هذا البيت.

والخامسة: أن الله تعالى قد جعل استخلاص الكعبة ينبوعا للكثرة. فدخلوا في دين الله أفواجا بعد الحج الأكبر.

والسادسة: أن الله تعالى سمى مسجد مكة مباركا، حيث قال: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾ [سورة آل عمران/٩٦] وجعل الله لهذا البيت من البركة ما عم فيضه جميع العرب بل جميع العالم، كما وعد إبراهيم عليه السلام. فظهرت بركته في إسماعيل عليه السلام، أكثر من بركة إسحاق عليه السلام كما مر في تفسير سورة الفيل.

ولا يخفى أن كل هذه البركات من هذا البيت، ومن الصلاة والنحر.

وأما تسمية القرآن بالمبارك فمن جهة كونه كالمطر النازل من السماء، فسماه مباركا كما سمى المطر مباركا. فكما أن المطر يحيي الأرض، فكذلك القرآن يحيي القلوب. فتسمية القرآن بالمبارك لا تجد فيها ما تشبهه بالحوض. والبلاغة تنكر هذا التشبيه لعلو مكانة القرآن وسعته التي لا نهاية لها.

والسابعة: أن هذه السورة نزلت يوم صلح الحديبية[1] الذي فتح باب الوصول إلى بيت الله والحج والصلاة والنحر وظهور الإسلام وكثرته،

---

[1] على ما جاء في تفسير الطبري. قال ابن جرير: "وقال آخرون بل أنزلت هذه الآية: ﴿فصل لربك وانحر﴾ يوم الحديبية". وروى عن سعيد بن جبير "أن قال كانت هذه الآية... يوم الحدبية" ٣٠: ٢١١-٢١٢ والمؤلف قد بحث عن موقع نزول هذه السورة في الفصل الرابع عشر.

حتى سماه الله تعالى فتحا مبينا. ونتكلم على زمان نزولها في الفصل الرابع عشر ببعض البسط إن شاء الله تعالى.

والثامنة: أن النبي ﷺ أخبر عن موضع طرف من ذلك الحوض. فأشار إلى الباقي، كما روى البخاري في صحيحه: "قال ﷺ ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي"[1].

فيستنبط من ذلك أن هذه الأرض المباركة التي يتردد فيها الحجاج هي التي تصير حوضه الكوثر الذي أخبر عنه، ومنبعه الكعبة.

وإلى هذا أرى إشارة في قوله ﷺ، كما روى البخاري في صحيحه، وهي التاسعة، أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر (أي منبره في المسجد فقام خطيبا) فقال: "إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض واني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها"[2].

"الفرط": من يتقدم القوم إلى الماء ليهيئ لهم الأرسان والدلاء، ويملأ لهم الحوض[3]. "وشهيد عليكم": أي يعرفهم ويشهد على كونهم من أمته، فيكون ذلك شفاعة لهم.

هذا بيان ما يقع في الآخرة. ثم أشار إلى أن ظاهر ذلك الحوض بين

---

[1] كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، رقم الحديث: ١١٩٦. وفضائل المدينة، رقم الحديث: ١٨٨٨. والرقاق ، رقم الحديث: ٦٥٨٨.والاعتصام ، رقم الحديث: ٧٣٣٥ .

[2] كتاب الجنائز، رقم الحديث: ١٣٤٤، والمناقب، رقم الحديث: ٣٥٩٦، والرقاق، رقم الحديث: ٦٤٢٦ و٦٥٩٠ .

[3] انظر اللسان "فرط" .

يديه، فإن منبره على حوضه، كما مر آنفا. وما ذكر من إعطاء مفاتيح الأرض فذلك ما أنجزه الله تعالى، فإن فتح مكة كان مفتاحا لفتح الأرض وخزائنها.

والعاشرة: أنه ﷺ أخبر أن طول حوضه ما بين مكة والمدينة. فأشار إشارة لطيفة إلى المطابقة التي بين أرض الحرم وحوضه.

فإن قيل: فهلا ذكر ما أراد بالتصريح ؟ قلنا إنما اختار هذا الاسم لكثرة دلالته، وليتفكروا. فدل على كثرة الأمة، وفتح مكة، وكثرة اجتماعهم في الحج، وفي الموقف على حوضه.

وإنما ذكرنا هذه الأمارات تمهيدا وتائيداً لما دل عليه نظم الآيات، كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى.

هذا، ثم التدبر في هيئة الحوض الكوثر يدلنا على ما ذكرنا من كون الكوثر الأخروي صورة روحانية للكعبة وما حولها. ونذكر ذلك في الفصل الآتي.

(٦)
النهر الكوثر صورة لروحانية الكعبة وما حولها من متردد الحجاج

من تأمل في صفة النهر الكوثر الذي كشف للنبي ﷺ حين عرج به يجده مثالا روحانيا للكعبة وما حولها. وذلك لما روى من طرق كثيرة من أن الكوثر نهر، على حافته قباب الدر المجوف. وأرضه يا قوت ومرجان وزبرجد. وفيه آنية مثل نجوم السماء. وماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج، وتربته أطيب من المسك، ترده طيور أعناقها كأعناق الجزر. قال رجل: إنها لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: آكلها أنعم

منها. وخرير ماءه مثل ما يسمع أحدكم إذا أدخل إصبعيه أذنيه[1]. وحصل لنا هذا الوصف بجمع الروايات. ولفظ البخاري: قال: "بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف. قلت ما هذا يا جبريل؟ قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده فإذا طيبه أو طينه مسك أذفر"[2].

فقف ههنا وتأمل الكعبة وما حولها حين يرد عليها الموحدون من أقطار الأرض يطفئون غليل شوقهم إلى ربهم. أليست حصباء بطحائها عند حسهم الروحاني أكرم وأبهى من الياقوت والزبرجد، وترابها أطيب من المسك، وقباب الحجاج حولها أحسن من الدر؟

ثم تأمل مع ورود الحجاج ورود البدن كالطيور على الماء. وذلك أسعد حال لهن، فإنهن يقربن إلى الله نيابة عن الإنسان. فكأنهن من الإنسان. فما أعظم فوزهن!

ثم تأمل آكليهن ضيوف الله الناعمين المبتهجين.

وتأمل كيف أشار بتشبيه الطيور الواردات بالبدن، وذكر آكليها إلى أن البدن هي الطيور. وكيف جعل الإشارة لطيفة ! فشبه أعناق الطيور بأعناق البدن، ليدل الجزء على الكل.وكيف جانب لفظ "البدن" وذكر "الجزر".

وكل ذلك ليحث العقول السليمة على الاستنباط. كما يذكر الله الدلائل في القرآن ويتبعها بمثل قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾

---

[1] انظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢١٠ وتفسير ابن كثير ٤: ٥٦٠-٥٦٢ .

[2] كتاب الرقاق ، رقم الحديث: ٦٥٨١ .

[سورة الرعد/٤، والنحل/١٢، والروم/٢٤]، و"يعلمون"، و"يتفكرون". والنبي أحسن المعلمين، فكان يربي العقول ويعلمهم الحكمة. وكان ربما يسأل أصحابه عن مناسبات الأمور، كما سأل عن مثل المؤمن في الأشجار.

وكذلك كان عيسى عليه السلام يضرب لهم الأمثال. فسألوه لم لا يصرح القول فأجابهم حتى لا يفهمها إلا العقلاء. وهكذا في القرآن: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [سورة العنكبوت/٤٣]. وجملة الكلام أن للإشارات محلا وحكمة في التعليم والتربية.

(٧)

نظير ذلك ما جاء من روحانية أورشليم

ويشبه ذلك ما جاء في مكاشفات يوحنا (٢١: ١٠-٢١): "[10] وذهب بي الروح إلى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله[11]. لها مجد الله (أي عليها نور من الله) ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلّوري (ثم ذكر سورها ومسافتها وأبوابها وسكانها من أسباط إسرائيل ثم قال:) [18] وكان بناء سورها من يشب والمدينة ذهب نقي شبه زجاج نقي.[19] وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم. الأساس الأول يشب. الثاني يا قوت أزرق. الثالث عقيق أبيض. الرابع زمرد ذبابي. [20] الخامس جزع عقيقي. السادس عقيق أحمر. السابع زبرجد. الثامن زمرد سلقي. التاسع يا قوت أصفر. العاشر عقيق أخضر. الحادى عشر أسما نجوني. الثاني عشر جمشت.[21]

والاثنا عشر بابا اثنتا عشرة لؤلؤة. كل واحد من الأبواب كان من لؤلؤة واحدة. وسوق المدينة ذهب نقي كزجاج شفاف". ثم ذكر أنه ليس فيها هيكل. ويعبدون الله وحده[1].

ولا آمن بعض التحريف والزيادة فيما نقلوا. وإنما المقصود أن المثال الروحاني لما في الدنيا من الأعيان والأعراض أمر معروف معلوم.

وهذا الوصف الذي ذكره يوحنا يكشف ما تحسه الباصرة فقط.

وما جاء في وصف روحانية الكعبة فقد جمع أوصافا لكل حاسة حتى السمع، بما ذكر من خرير مائها. وخرير الماء من البعيد لأشهى وأحلى للعطشان. ثم الماء الحلو البارد أقرب تأدية لما يطفئ شوق الموحدين المخلصين العطاش الجياع لله. وعنهم أخبر المسيح عليه السلام بقوله: "طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون"[2].

(٨)

تأويل قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾

بعد ما فهمنا دلالة كلمة "الكوثر" اتضح لنا معنى الآية الأولى، وهو أنها إخبار عما أعطاه الله تعالى من البركة وكثرة الأمة. وأخبر به حين دنا إنجازه في الدنيا، لكي يبشر النبي ﷺ ثم المسلمين بظهور الإسلام وانتشاره في البلاد، وبفتح مكة. أي: أعطاك الله أمة عظيمة من المصلين

[1] واللفظ فيه: "٢٢ ولم أرفيها هيكلا لأن الرب الله القادر على كل شئ هو". وفي الأصحاح الثاني والعشرين: "٣ وعبيده يخدمونه" .

[2] إنجيل متى ٥: ٦ .

المنفقين يحجون بيت الله الحرام، كما قال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ أي المصلين ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ أي يأتوا لزيارة البيت من القرب رجالا، ومن البعد تضمر له الركاب، ومن أقطار الأرض. فيدخلوا مكة من كل فج. ولكثرة السالكين تصير الفجاج عميقة. ليشهدوا منافع لهم ﴿أي تصير هذه البلدة مثابة لهم، فينتفعون بالتجارة، ويخالط بعضهم بعضا آمنين. فيصلح بالهم ويصلوا أرحامهم. وكانت سنة الخطيب في عرفات أن يحثهم على الصلح وصلة الرحم. ولذلك سموا مكة "صلاح" و"أم الرحم". فما أكبر نفع ذلك في معاشهم؟ ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذه منفعة دينية. فمع شركهم لم يتركوا ربهم. وإنما اتخذوا إليه شفعاء ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ [سورة الحج/٢٦-٢٨].

فبين أن هذا البيت جعل مركزا للتوحيد، والصلاة، وإطعام الفقراء لأمة كثيرة يحجونه من جميع البلاد. وقد كان إبراهيم عليه السلام دعا الله أن يبعث نبيا لهذه الأمة الكثيرة، وقد استجاب الله دعوته. وقد وعده الله تعالى كثرة في ذريته، لا سيما في ذريته من إسماعيل، كما جاء في التوراة[1]. واعترف بذلك أهل الكتاب.

وقد ذكر الله تعالى هذا العطاء في أوائل بعثة نبينا حيث أخبره في سورة الضحى بقوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [سورة

[1] نظر سفر التكوين ٢١: ١٨ .

الضحى/٥] فهذا الوعد الذي ذكر اقترابه جعله مقتضيا بقوله: ﴿إنا أعطيناك﴾، وفسر معنى: ﴿فترضى﴾ بكلمة "الكوثر". فإن النبي ﷺ لغاية رأفته، وحرصه على الهداية لا يرضى بالقليل أو بأن يعطيه الكثير في الدنيا فيدخلون في دين الله أفواجا، ثم يسلبه إياهم في الآخرة حتى يقلوا على حوضه. فأزاح كل شبهة بكلمة "ترضى". وقد كثرت الأحاديث الصحاح بكثرة أمته.

فهذه الآية الأولى بشارة عظيمة من وجوه: من قرب الفتح، وقرب دخول الناس الكثيرين في أمته، وبقاء جماعة كثيرة منهم على الدين الحق على رغم من يزعم بردة أكثر هذه الأمة.

ذلك، و تأتيك بشائر جمة عن قريب إن شاء الله تعالى، فإن السورة كلها بشارات. ولله الحمد في الآخرة والأولى.

(٩)

تأويل قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾

وبيان ربطه بما قبله

هذه الآية تدل على أربعة أمور:

الأول: إن الصلاة والنحر لهما ربط بهذا العطاء، لما صدر الأمر بالفاء.

والثاني: أن في الآية أمرا وإيجابا لهما عموما على سبيل الانفراد، وخصوصا بجمعهما، وذلك في الحج.

والثالث: أن بين الصلاة والنحر ربطا خاصا.

والرابع: اختصاصنا بهذه العطية، والأمر بالصلاة والنحر معا.

ويهدى ذلك إلى أننا على سنة إبراهيم عليه السلام دون المشركين ومبتدعي اليهود والنصارى، لأن المشركين لم تكن صلاتهم ونحرهم للرب خالصا، ومبتدعة اليهود لم يكن لهم غير القرابين. وأن قرابينهم لا تسمى نحرا، فإن النحر مخصوص بالإبل وهو حرام عليهم. ومبتدعة النصارى ليس لهم قربان أصلا، والصلاة غير واجبة عليهم بزعمهم.

فهذه جملة الكلام. ولابد لها من بعض التفصيل.ونأتي به في عدة فصول. أما الأمر الأول والثاني فتجدهما في هذا الفصل، وسيأتيك الباقيان فيما بعد.

فاعلم أن الله تعالى بعد ما بشر النبي ﷺ والمسلمين بهذه العطية عقب البشارة أمرين: الصلاة والنحر. والتعقيب يدل على نسبة وربط بين السابق والتالي، أي العطية والأمر. فلما تدبرنا فيما دل عليه نظم الكلام ظهر لنا بعض وجوه الربط بتوفيق الله تعالى. فنذكرها، والحمد لله تعالى.

الأول: أن هذا الأمر يتضمن بيان مقصد هذا العطاء. فإن هذا العطاء كان لمقصد عظيم، كما قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [سورة الحج/٤١]، وكما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ [سورة إبراهيم/٣٧] أي يأتون إليهم يحجون بيتك.

فعلمنا أن هجرة إبراهيم عليه السلام وسكناه في واد قفر وأرض عاقر لم تكن إلا لإقامة مركز لعبادة الله الواحد يتوجهون نحوه ويأتون إليه من البعد، ويطوفون، ويسعون، ويقدمون إليه الهدايا كالعبيد يسعون على باب

مولاهم الذي دعاهم. فأسرعوا إليه قائلين: "لبيك لبيك لا شريك لك لبيك". ثم يسمعون بما أمر الرب ونهى عنه على لسان إمامهم. ولذلك قال تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك﴾ [سورة الحج/٢٧] أي يأتوا إليك لاستماع الحكمة. فإن الله تعالى جعله إماما للناس، كما جعل ذلك البلد مثابة وبركة وهدى لهم. فكان يقربهم ويقوم فيهم خطيبا. وهكذا قرى النبي ﷺ عشيرته حين قام ببعثته ودعاهم إلى الرب. وقد استمرت سنة الخطبة بعد إبراهيم عليه السلام مع سائر سنن الحج، كما مر في تفسير سورة البلد[1].

ثم يطعمون الناس بما ساقوا من الهدايا، ويأكلون منها شاكرين بأن تقبل الرب هدايا عبيده ثم أعطاهم ما قربوا إليه.

فقد تبين أن هذا البيت إنما وضع لمقاصد عظيمة، بها أعطاهم التمكين في الأرض، وأن معظمها الصلاة والنحر. فذكرهما بعد ذكر إعطائه ليعلموا أن هذا العطاء له حق وغاية، ليقوموا بحقه، ويتموا ما لأجله أعطوه. وذلك مبني على وجوب إيفاء الحقوق. فإن لكل عطاء حق لابد أن نوفي به، كما قال تعالى: ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [سورة الأنعام/١٦٥]. وأيضا: ﴿أحسن كما أحسن الله إليك﴾ [سورة القصص/٧٧] وأيضا: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ [سورة الأنعام/١٤١].

الثاني: أنه تعالى عقب ذكر العطية ذكر ما به بقاءها. فأمر بالصلاة والنحر أمرا عاما، فإن هذه العطية كانت للنبي وأمته عامة. فإن النبي وكيل أمته. فما أعطاه أعطى أمته. ولذلك قال عليه السلام: "أنا فرط لكم على

[1] لم يكمله رحمه الله.

الحوض"[1]، كما مر. فلذلك الأمر بالصلاة والنحر عام، وهو ظاهر. فلما ربط عبادة بعطية علمنا أن الامتثال به يضمن بقاء نعمته. وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد/١١]. وهذا الذي أمرنا به هو الحج ومناسكه، كما هو ظاهر. فكأنه تعالى قال: إنا أعطيناك الكوثر فأد حقه، فيبقى لك هذا العطاء.

وسواء أخذت الصلاة والنحر بمجموعهما أو بانفرادهما كان المراد هو الحج. فإن الحج من الصلاة لما جاء في الحديث، ولما دل عليه أعمال الحج. وقد علمنا أن مقصد البيت الصلاة ولذلك بني، كما مر. فمن لم يحج وقد أمكنه لم يتم مقصده. وكذلك النحر. فإن من ضحى في غير الحج ترك أعظم الأضاحي. والذي يضحى في غير الحج فإنما هو متشبه بالحجاج، وهو يريد وينتظر أن يجد سبيلا فيحقق ما يريد. فبأي وجه أخذت دلت الآية على أن الحج يلزم الأمة. فمن استغنى عنه أخرج نفسه عنهم.

وهذا يتضح من النظر في حقيقة الحج. وقد صرح بذلك القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني من العالمين﴾ [سورة آل عمران/٩٧]. فذلك تصريح بكفر من استغنى عن الحج وأن الله تعالى لا يبالي به.

والثالث: أنه يتضمن تسلية النبي والمسلمين. كأنه قيل له: إنهم أخرجوك ومنعوك عن الصلاة والنحر، فالآن بعد ما أعطيناك الكوثر لا مانع لك، فافعلهما بفراغ بالك، وبقدر شوقك بإكثار النحر، وبجماعة

[1] يشير إلى حديث البخاري مر تخريجه

عظيمة حتى يتحقق معنى الكوثر. وقد علمنا شوق النبي ﷺ والمسلمين إلى الحج والصلاة والنسك والأمر بعمل مرغوب مع كونه أمرا يتضمن التبشير والتسلية وإظهار الرأفة.

والرابع: أنه بيان عهدنا بالله تعالى. جعل الأمر بالصلاة والنحر مرتبا على عطيته، فإذا قبلنا العطية أوجبنا على أنفسنا ما أمرنا به، ومتى ما بقينا على طاعة أمره بقي لنا ما أعطانا. فصار أخذ العطية عهدا بالله، كما أعطى الله آدم وحواء عليهما السلام المسكن في الجنة ليأكلا منها رغدا، ولا يقربا شجرة خاصة عرفها لهما. فلما أخذا العطية وجب عليهما عهد الله. ولذلك قال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ [سورة طه/١١٥].

وكذلك بقي لهما ما أعطاهما الله ما بقيا على عهده.

وكذلك نرى في قصة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ [سورة البقرة/١٢٤].

فبعد ما امتثل إبراهيم عليه السلام بأوامر ربه تعالى جعل له ربه عهدا. وهذا العهد يبقى لذريته ما داموا قائمين به. وأما الظالمون فيحرمونه.

والخامس: أنه بيان عهد التوحيد. وقد صرح القرآن بذلك العهد، وصرح بأدلته كثيرا. وجماعها: كونه ربا منعما. وقد أخذنا عطاياه من الخلق، وحسن التقويم، والرزق الطيب. وهذا عام.

وههنا ذكر نعمة عظيمة خاصة. فذكر ما أوجبت هذه النعمة علينا من التوحيد في صورة خاصة تناسب العطية الخاصة. فإن الله تعالى هو الذي أعطانا هذا البيت، فلابد أن تكون الصلاة والنحر له.

وفي ذلك أيضا تعريض بالخائنين الظالمين. وهذا يظهر من النظر في كلمة: ﴿إنا﴾ و﴿لربك﴾. أي أنا الذين أعطيناك، فلابد لك أن تصلي وتنحر مخلصا لي خلاف ما فعل المشركون. وصرح بهذا المفهوم في سورة الحج مرارا، فلا حاجة إلى إيراده ههنا.

وهكذا فسر الآية محمد بن كعب القرظي، حيث قال: "إن ناسا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله. فإذ أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي"[1].

(١٠)

وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر

اعلم أن للصلاة والنحر وجوها كثيرة دلنا القرآن عليها كلها. ولا حاجة إلى استقصائها ههنا، وتجدها في كتاب المفردات[2] و إنما نذكر الآن منها ما يدل على المناسبة بينهما.

وهذه الوجوه وإن لم يصرح بها القرآن، فإنها لا تخفى على من تدبر في آياته ونظم كلماته. إنه بعد ذلك لا يستطيع دفعها عن قلبه. وكيف يصرف نفسه عن التأمل في آياته من أيقن بحسن نظامه، وقرع سمعه قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [سورة محمد/٢٤].

والمقصود أن مجرد ربط الصلاة بالنحر يحثنا إلى التدبر في وجوه المناسبة بينهما. وذلك يطلعنا على حقائق عظيمة. ونحن ذاكرون هذه

---

[1] الطبري ٣٠: ٢١١ .

[2] يعني تأليفه: "مفردات القرآن" .

الوجوه لا لمجرد بيان حسن النظم، بل أيضا للكشف عن تلك الحقائق العظيمة، حتى يتضح بعد النظر فيها أن السور القصار بنيت على معظمات الأمور. فلئن صغرن من جهة اللفظ فإنها لكبار من جهة المعنى.

والآن نشرع بعون الله تعالى في ذكر وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر.

فالوجه الأول: أن المناسبة بينهما تشبه المناسبة التي بين الإيمان والإسلام. وبيان ذلك يقتضي تمهيدا. فاعلم أن الدين مبني على صحة العلم والعمل. فالعلم أن نعرف ربنا ونسبتنا إليه، ولا نذهل عن هذا العلم. ويلزمه حالة قلبية من المحبة والشكر، وتفيض إلى الأعمال. فالعمل متصل بالعلم اتصال الأثر بالمؤثر، والظاهر بالباطن. فالعلم من باب الإيمان والعمل من باب الإسلام.

ثم اعلم أن العمل كما يقابل العلم، فكذلك يقابل القول. فالقول وسط بينهما وهو أول ظهور الإرادة وتحقيق العمل.

وبعد هذا التمهيد انظر إلى ربط الصلاة والنحر.

أما الصلاة فلا يخفى أنها قول وإقرار. وجميع أوضاعها من القيام والقعود، و الركوع والسجود، ورفع اليدين والاصبع أقوال بلسان الأوضاع. فهي أول خطوة بعد الإيمان، وبها يفتح باب الأعمال. ولذلك قدمت على جميع الشرائع، كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ [سورة البقرة/٣]. وبسطناه في تفسير سورة الفاتحة.

وقد بين الله ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام حيث ذكر أنه لما عرف ربه بالتوحيد قال: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض

حنيفا وما أنا من المشركين﴾ [سورة الأنعام/٨٠]. والصلاة تحقيق هذا التوجه. ألا ترى أنك تفتح صلاتك بهذا القول.

وكذلك ترى في قصة موسى عليه السلام كيف أمره الله تعالى بعد ما أعطاه معرفة التوحيد، حيث جاء: ﴿فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري﴾ [سورة طه/١١-١٤].

ومثل ذلك قال تعالى بعد إبطال الشرك: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ [سورة الروم/٣٠-٣١]. فالصلاة فطرة المخلوقات كلها. ولذلك قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ [سورة الإسراء/٤٤]. وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات. كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ [سورة النور/٤١]. فالصلاة من جميع الأعمال أمس بالإيمان، وأول فيض منه. وكلها جماع التوحيد والإنابة والشكر والتوكل والتبتل إلى الرب. وأنها فطرة لجميع الخلق.

وأما النحر فهو جماع معنى الإسلام. فإن الإسلام هو الطاعة، وإذعان النفس لربها، وتسليم كليتها لمولاها. وهو أيضا فطرة العباد كالصلاة.فإن المخلوق لم يخلق إلا بإذعانه لأمر ربه. أمره بـ"كُن" فكان، واستجاب لدعوته في بدء خلقته. فإن عصى بعد ذلك ناقض فطرته.

فالإسلام من هذه الجهة أحاط بجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وله

أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾ [سورة آل عمران/٨٣]. أي استجبتم دعوته في أول خلقكم وكذلك تستجيبونها في الآخرة، فتحشرون إليه، كما قال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ [سورة الروم/٢٥]. وقال تعالى: ﴿فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾ [سورة الإسراء/٥٢]. فالإسلام للرب، والتسبيح والسجدة والصلاة له كلاهما فطرة، وفي غاية الاتصال.

وإذ جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إمامنا، ومسجده قبلتنا، وهديه سنتنا، دلنا على حقيقة النحر أيضا بقصته كما دلنا بها على حقيقة الصلاة. فذكر تعالى: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (أي إني مهاجر إلى ربي سيهديني صراطه) رب هب لي من الصالحين (أي ذرية صالحة لنسلك بهم، فنبين للناس سنن الهدى) فبشرناه بغلام حليم (أي إسماعيل. وإنما سمي إسماعيل- أي سمع الله- لما أنه كان جوابا لدعوته) فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك (أي أذبحك لله) فانظر ماذا ترى (إنما سأله لكي يشركه في الطاعة. فإن مقصود إبراهيم عليه السلام كان ضرب طريق وإقامة سنة. وقد علم من إجابة دعوته أنه يكون عاقلا فأمن مخالفته) قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. (ففهم إسماعيل عليه السلام من قول أبيه أنه لم يكن ليذبحه إلا بأمر، وأجاب جواب المتوكلين) فلما أسلما وتله للجبين. (أي لما حققا بذلك كمال إسلامهما. أما الوالد فلأنه أسلم ما كان أحب إليه من نفسه، وأما الولد فلم يكن له إلا نفسه) وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين (فبلغا بذلك درجة الإحسان، وهو كمال الإسلام، وصارا بهذا البلاء إمامين تأتم الهداة بهما) وفديناه بذبح عظيم﴾

[سورة الصافات/٩٩-١٠٧] أي فدينا الغلام بذبح عظيم، وهو إقامة سنة التضحية ومغفرة المضحين بها.

فبين الله لنا بهذه القصة أن الإسلام أصله الطاعة، وتسليم أحب ما عنده للمولى حتى النفس. ولا يكون ذلك إلا بتمام الإيمان والإخلاص. وكمالهما الإحسان. وهو أن تعبد الله كأنك تراه. فتبين مما قدمنا أن ربط النحر بالصلاة كربط الإسلام بالإيمان أو كربط القول بالعمل، وأن الإحسان يجمعهما.

والوجه الثاني: أن النسبة بين الصلاة والنحر كالنسبة بين الحياة والموت. وبيان ذلك أن الصلاة سرها ذكر الرب، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ [سورة طه/١٤]. أيضا: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ [سورة الأعلى/١٥] وهذا كثير. والمطلوب دوام الذكر، لقوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ [سورة آل عمران/١٩١]. أيضا: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا. هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾ [سورة الأحزاب/٤١-٤٣]. أي كما أنتم تذكرون الله وتسبحونه فكذلك هو يصلى عليكم وملائكته. وبذلك يزيد نوركم، كما قال: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢] أيضا: ﴿فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون﴾ [سورة حم السجدة/٣٨]. ولهذا السر ملأ ساعاتنا بالصلاة، ولم يرخص عنها في حالة. فظهر أن الصلاة كالتنفس لابد منها. فبذكر الرب تبقى الحياة المعبر عنها بالنور والسكينة والإيمان.

وذلك ظاهر عقلا. فإن توجه الرب ونظر رأفته إلى العباد بعد ما

أعطاهم العقل والتمييز لا يكون إلا بأن يتوجهوا إليه. فإنه يزيد النعم بالشكر واستعمال ما أعطى، كما قال: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [سورة محمد/١٧]. والتوجه إليه يكون بذكر اسمه. فيتقربون إليه بهذا السبيل. فإنه لا معنى للقرب والبعد منه تعالى إلا ذكره والغفلة عنه أعاذنا الله منها. فإذا ذكروا ربهم اقتربوا منه، كما قال تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [سورة العلق/١٩]. فحينئذ توجه إليهم نظر رحمته وأشرق عليهم نور قدسه. والروح إنما يشرب وينصبغ بالذكر والفكر. فبدوام انغماسه في ذكر ربه تنزل عليه حياة وقوة منه. وعن ذلك أخبرنا النبي ﷺ كما روى البخاري: "ما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش"[1].

وما هذا إلا بيان الحياة الروحانية التي هي الحياة الحقيقية العليا. فعلمنا أن الصلاة هي عين الحياة وسلم النجاة من هذه الحياة السفلى.

وأما النحر فحقيقتها تسليم النفس لربها، كما دلت عليه قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجعل التضحية تذكارا لتلك القصة والبلاء المبين ابتلى به الرب خليله. والمؤمنون يحققون ذلك التسليم بإهراق مهجهم في سبيل الله. فكما أن الصلاة حياتنا بالرب فكذلك النحر موتنا له. وذلك هو الدين والإسلام، كما قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم. دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، وما كان المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين﴾ [سورة الأنعام/١٦١-١٦٢].

"النسك" في هذه الآية هو الذبح في الحج والعمرة باتفاق

---

[1] انظر كتاب الرقاق ، رقم الحديث: ٦٥٠٢ .

المفسرين. وكذلك هو في لغة العرب. فبما ضم الصلاة بالنسك وأتبعهما بالحياة والموت دل بنظم الكلام على سرهما، والنسبة بينهما على أسلوب التواطؤ. فالصلاة هي المحيا للمسلم، ونسكه هو مماته في سبيل ربه. ثم هما متحدان. فإن هذا الموت هو باب الحياة. ولذلك قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ [سورة البقرة/١٥٤].

الوجه الثالث: أن الصلاة والنحر جانبان للنحر الحقيقي. وبيان ذلك أن الله تعالى لما خلق الإنسان ذا عقل وإرادة حاكما بالحسن والقبح رفعه أعلى درجة، ومع ذلك أقامه على شفا حفرة، كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ [سورة التين/٤-٦]. وأيضا: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [سورة الشمس/٧-١٠]. وذلك لأن العبد إذا قطع النظر عن منعمه واستغنى عن ربه حجب عن نوره، وراقه الباطل المزخرف، واتبع مراد نفسه، وصار الهوى إلهه. كما قال تعالى: ﴿أ فرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم (أي بعد أن أعطاه العقل والسمع والبصر، كما قال: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنه سميعا بصيرا إنا هدينه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ [سورة الدهر/٢-٣] أي إن لم يستعمل ما أعطاه الرب كان كفورا) وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ [سورة الجاثية/٢٣] أي بعد أن أعرض عن ربه أطاع نفسه فصرفته إلى شهواتها وصارت حجابا على قلبه، كما قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما

كانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (أي كما حجبوا عنه في الدنيا فكذلك يحجبون عنه في الآخرة. والعبد يرجع إلى ما صم إليه. فإذا تعبدوا للنفس صارت هي مولاهم فيرجعون إلى حقيقتها فقال:) ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ [سورة المطففين/١٤-١٦]. فلما كان الإنسان على هذه الحالة لزمه أن يكسر هذا الصنم. ولما كان هوى النفس ذا جهتين: سبعية وبهيمية، لزمنا أن نكسر كلا جناحيها. فهدانا لإهانتها بذبحين: ذبح السبعية وذبح البهيمية.

أما الأول: فبالخشوع لله والتذلل بين يديه. وجماعه الصلاة. فإن بها يقمع رأس الكبر. لأن الخشوع من أعظم جهات الصلاة، كما قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلوتهم خشعون﴾ [سورة المؤمنون/١-٢] وأيضا: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغفلين. إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ [سورة الأعراف/٢٠٥-٢٠٦] وأيضا: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾ [سورة الفرقان/٦٣-٦٤].

انظر كيف قدم ذكر التواضع على صلاتهم. فإن الصلاة تزكية النفس عن كبرها. ولا يخفى أن من كان دائم الذكر لربه وكبريائه ورحمته غشيه التواضع والرحمة. ومثل هذا النظم ترى في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا﴾ [سورة الفتح/٢٩]. وإنما بدء بذكر صفة الشدة ههنا لإبطال الرهبانية. فإن المحب لربه كما يعظمه ويكبره فكذلك يكون حبه لذلك

الأمر. فلا يبالي بمن خالفه، ويجاهر به على رغم المعاندين. فلم يقدم الشدة إلا لدفع توهم. فإن الآية في صفة قوم على غاية الاعتدال. وكانت هذه الآية في خصائصهم حسبما جاء في التوراة والإنجيل، فقدم ما يمتازون به عن أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام.

وبذلك أيضا نبه على كمال فضيلة العدل والاعتدال، والجمع بين الضدين، ولا فضيلة فوقه. فلم يذكر الشدة إلا تأكيدا لتصحيح صفة التواضع والرحمة الناشئة من الخضوع للرب. فإن خوف الرب والتواضع له ينفي كل خوف لسواه، كما قال تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون﴾ [سورة آل عمران/١٧٥]. وأيضا: فلا تخشوهم واخشون﴾ [سورة المائدة/٣]. وفي ذلك آيات كثيرة.

وأما الثاني: فبالنزوع عما تلتذ به النفس وتحبه في هذه الحياة الدنيوية. ولذلك ثلاث مدارج:

الأولى بذل النفس في سبيل الرب. وأكبر منه ذبح فلذة الكبد. ولذلك ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح بكره وأحب أولاده، وهو إسماعيل عليه السلام. فإنه لما بشر بإسحاق قال: "ليحيى إسماعيل"[1] قولا مفصحا عن غاية حبه له.

والثانية تحمل المشاق والأذى في طاعة الرب، وترك اللذائذ. فإن ذلك أحب إلى النفس بعد الحياة. ومن هذا الباب الصوم. وهذه الدرجة الثانية نهاية الضعفاء من باب النحر. ولذلك حين سئل المسيح عليه السلام عن أكبر الدرجات فقال: لا يحصل ذلك إلا بالصلاة والصوم.

والثالثة بذل المال الذي هو مفتاح الملاذ. والزكاة من هذا الباب.

---

[1] في الترجمة البيروتية: "ليت إسماعيل يعيش أمامك". انظر سفر التكوين ١٧: ١٨ .

فأما الإنفاق في سبيل الخير بما يزيد على الزكاة المفروضة، ففيه أيضا إبطال آلة الكبر. ولما كان المقصود من ذبح البهيمية فطام النفس عما يُعَبِّده للذته لزمه أن يكون مما تحبه النفس. فلذلك قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [سورة آل عمران/٩٢]. وهكذا أمر بتسمين الأضاحي. وبين حقيقة ذلك حين ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح أحب خلق عنده. ولما كان بذل المهج هو كمال هذا الذبح جعل إهراق الدم إمارته.

فتبين مما ذكرنا أن الصلاة والنحر طرفان لذبح النفس. وإلى ذلك يشير ما جاء في الحديث: "قربان هذه الأمة بدمائها وصلاتها". أي ببذل مهجهم وصلاتهم.

والوجه الرابع: أن الصلاة والنحر يتضمن أحدهما الآخر. فالصلاة من وجه نحر، والنحر صلاة.

أما كون الصلاة نحرا فقد تبين مما مر آنفا من كونها ذبح السبعية. ثم هي أيضا تحمل النفس مشقتها وتكفها عن لذتها ورتعها، فذلك من ذبح البهيمية.

وأما كون النحر صلاة فقد مر أن حقيقة النحر هي بذل النفس في سبيل الله. ولا يخفى أنه صلاة في صورة أخرى. فإن بذل المهجة في سبيل الرب إقرار وتصديق بالإيمان، ولذلك سمي شهادة. وأيضا هو غاية الخضوع والطاعة فتضمن أوفى حظ من الصلاة إقرارا بالتوحيد وخضوعا للرب.

ثم جعل للتضحية من الآداب ما يدل على كونها صلاة. وذلك أمور:

- الذبح بالمصلى.
- وبدؤه ببسم الله والله أكبر.

- وتوجيه القربان والمقرب إلى القبلة.
- ورعاية القيام في البدن.
- والسجود في الكباش.

وقراءة دعاء افتتاح الصلاة، كما جاء في القرآن: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ [سورة الأنعام/٧٩]. وأيضا: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له﴾ [سورة الأنعام/١٦٣-١٦٤] وقد نبهنا القرآن على هذا الأمر، فذكر في قصة تضحية إبراهيم عليه السلام: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ [سورة الصافات/١٠٣]. أي توجها إلى الرب ظاهرا وباطنا، ثم جعله ساجدا. وكذلك ذكر في أمر النحر: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير. فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ [سورة الحج/٣٦]. أي قياما كما تصفون في الصلاة.

وكذلك ذكر في أمر الزكاة التي هي من أبواب التضحية، كما قال تعالى: ﴿ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ [سورة المائدة/٥٥]، أي يعطون بهيئة تظهر خشوعهم، لاكمن يعطي رباء وسمعة وفخرا.

والوجه الخامس: أن الصلاة والنحر كليهما ذكر لله تعالى. أما الصلاة فظاهر أنها للذكر، كما جاء في كثير من الآيات مثلا: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ [سورة طه/١٤]. أيضا: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ [سورة الأعلى/١٥].

وأما كون النحر ذكرا فأيضا دل عليه القرآن، حيث قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ [سورة الحج/٣٤]. وأيضا: ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [سورة

الحج/٣٧]. أي هداكم إلى دين التوحيد والإسلام. فكما نذكر الله بالتكبير في الصلاة فكذلك عند النسك.

والوجه السادس: أن كليهما شكر. أما الصلاة فكونها شكرا ظاهر حتى عبر عنها به، كما قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [سورة البقرة/١٥٢]. ومعظم الصلاة قراءة سورة الفاتحة. وبناؤها على الشكر.

وأما النحر فإنا نعلم أن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ [سورة الأنعام/١٤] وإنما نقرب إليه مما أنعمنا به اعترافا بأن ما عندنا ملكه ونعمته. ولذلك نقول عند التضحية: "ومنك ولك". ولذلك قال تعالى: ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ [سورة الحج/٣٦].

وكما أن الصلاة شكر عام على جميع نعمه الظاهرة والباطنة، فكذلك الذبح ليس شكرا على ما رزقنا من المنافع الدنيوية، بل على ما هدانا إلى دين الإسلام ووفقنا لطاعته. ولذلك قال: ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [سورة الحج/٣٧].

والوجه السابع: أنهما كليهما من التقوى. أما الصلاة فإن العبد لا يزال يذكر ما تعلق به رجاؤه وخوفه، والصلاة لهذا الذكر. فيتضرع العبد ويتخشع، لما يبغي رضى ربه ويخاف سخطه. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون﴾ [سورة الأنعام/٧٢].

وأما كون التضحية من التقوى فذلك أن تسلط الإنسان على البهائم أشبه شئ بالتعبيد، فوجب أن ينفي هذا التوهم بالتخشع والإقرار

بالعبودية، وأن النعمة والربوبية والملك لله تعالى. وصفة التقوى جماع هذه الأمور، فصارت سر التضحية. فالعبد في الحقيقة يتقرب إلى ربه بالتقوى. ولذلك لا يتقبل التضحية إلا بها، كما قال تعالى في أمر القربان: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [سورة المائدة/٢٧]. وأيضا في الحج: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [سورة البقرة/١٩٧]. وإنما سمي التقوى زادا لأنها تبلغه منازل قرب الرب. والتقريب للتقرب، كما نذكره في الوجه الحادي عشر. فلا بد فيه من زاد التقوى.

والوجه الثامن: أنهما من منازل الآخرة. فإن الصلاة رجوع إلى الله، وصورة لوقوفنا بين يديه في المحشر. ففيها خلسة من المعاد. فمن كان مصليا كان ذاكرا لرجوعه إلى ربه. وهذا نفهم من قوله تعالى: ﴿إنها (أي الصلاة) لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ [سورة البقرة/٤٥-٤٦]. فمن علم بأنه راجع إلى ربه ومسئول عن عمله رجع إليه وتاب، وغشيته هيئة الخشوع والوقوف في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة﴾ [سورة النازعات/٨-٩]. وقال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون/١-٢]. وأيضا: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ [سورة النور/٣٧] ويشبهه قوله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، إن إلى ربك الرجعى (أي كيف يستغني وهو محضر) أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى﴾ [سورة العلق/٦-١٠].

ثم علمنا القرآن أننا نستجيب دعوة الرب فنخرج من القبور حامدين لله، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن

لبثتم إلا قليلا﴾ [سورة الإسراء/٥٢]. فهكذا المصلون يستجيبون دعوة الصلاة ويصفون لله حامدين.

وأما النحر فهو أيضا رجوعنا إلى الله، كما مر في الوجه الثاني والثالث. والآن ننظر إليه من وجه آخر. وذلك أن أجسامنا سخرت لنا كالبهائم فهي للركوب والرفق إلى أجل مسمى، ثم ترجع إلى الرب. فهي كما قال تعالى في أمر البهائم ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [سورة الحج/٣٣]. وأيضا كما نسوق البدن إلى ذلك البيت نسوق أبداننا إليه، كما قال تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [سورة الحج/٢٧].

وكما نحرم الهدايا ونجعل لها شعارا فكذلك نفعل بأجسامنا. وإنما لا تنحر جسومنا، بأنا نفديها بالبدن كما فدى إسماعيل عليه السلام بما ذبح عوضا منه. ولكن الله تقبل هدية خليله بما اتخذ إسماعيل عليه السلام خادما لبيته، فكذلك نفدي أجسامنا ولكن لا ترد إلينا. بل نأخذها أمانة، فنبذلها ونهريق مهجتها في سبيل الله. وقد نبهنا القرآن على هذا السر حيث قال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [سورة التوبة/١١١]. فاشترانا الله بمجرد بيعة الإسلام. ونحضر على باب بيته لتجديد ذلك بمس حجر العهد، ونؤكد عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكوننا قرابين لله تعالى.

ثم اجتماعنا في الحج أظهر تصوير لوقوفنا في المحشر. فصلاتنا واجتماعنا لذكر الله والحج والنحر يشبه بعضها بعضا في نسبتها بالمعاد.

والوجه التاسع: أنهما من أبواب الصبر. أما الصلاة فلأن العبد يداوم عليها مطمئنا بوعد الله، كغارس يقوم على غرسه يسقيه ويخدمه، ينتظر ثمره وينظر رفاهية الغافلين. فلا يهن ولا يكل، بل لا يزال يقوم لربه ويحمده ويشكره، ولا يبالي باستهزائهم برجائه للغائب البعيد. فكل ذلك لشدة عزمه وصبره على العاقبة. ولهذه الجهات جمع القرآن الصبر والصلاة في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة البقرة/٤٥]. ودل على ما ذكرنا آنفا قوله تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى. ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقا، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [سورة طه. ١٣-١٣٢]. وأيضا ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة﴾ [سورة الرعد/٢٢]. وأيضا: ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار، إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ [سورة المؤمن/٥٥-٥٦]. فنبهنا على موضع الصبر من التمسك بالوعد، والتوكل على الرب، وتحمل الأذى، وانتظار الفلاح.

وأما النحر فهو مبني على تعليم الصبر العظيم الذي ظهر من إبراهيم عليه السلام. فإنه رضي بربه وفضله، ولم يعط ولدا حتى كبر. ثم لما أعطاه الله الولد وجعله قرة عينه فطرة ولمخائل حسناته ابتلاه بذبحه. فما تزعزع قدم صبره، بل شكر للرب لما طلب منه أحب خلق عنده. فصبرنا على الصلاة كصبرنا عند احتمال كل مصيبة. ودل على هذا الربط بين

الصلاة والصبر عند احتمال ما يبتلى الله به عباده من إهانة النفس وما دونها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين. ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون. إن الصفا والمروة (المروة هي محل تقريب إبراهيم عليه السلام ابنه كما بيناه تحت هذه الآية في محلها) من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ [سورة البقرة/١٥٣-١٥٨]. فجمع في هذا الكلام الصلاة والصبر والجهاد والمصائب ومذبح إبراهيم عليه السلام، لما فيها من الربط الحقيقي.

والوجه العاشر: إقرار الملك والنعمة لله. وهذا في الصلاة ظاهر. فإنها بنيت على إقرار الشكر والربوبية.

وأما التضحية فهي إقرار بذلك بلسان الحال، كأنا نقول أن الملك والنعمة لله تعالى، فنفوسنا وأموالنا كلها لله. فلابد أن نفوضها إليه ونحبسها لطاعته ونأخذ منها على سبيل الهبة منه تعالى، فنقر بإحسانه ونضعها حيث أمرنا، ولا نشرك فيها أحدا. فنعبده ونصلي ونقدم إليه ما أعطانا، فإنه هو الخالق والواهب، كما هدانا لنقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [سورة البقرة/١٥٦]. أي نحن ومالنا لله، فله الحكم والمنة. ولنا الخضوع والشكر، وإليه نرجع كما يرجع الأموال إلى مالكه. و لذلك لا يحل لنا التمتع بشيء حتى بأنفسنا إلا بذكر اسمه والإقرار بكونه عطية من الله.

وتعليما لهذا الأصل العظيم جعل علينا فريضة النسك، لنذكر اسمه

على ما رزقنا من الأنعام مسخرة لنا، كما قال تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ [سورة الحج/٣٤]. وأيضا: ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [سورة الحج/٣٧]. ولكون التصرف في الحيوانات شبها بتعبيد هم فرض ذكر اسمه في الذبائح.

وكذلك كل ما أخرج لنا من الأرض جعل فيه حقا لكيلا نغفل عن كونه من نعم الله، كما قال تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ [سورة الأنعام/١٤٢].

ولذلك حرم علينا الإسراف، فإن كل ما في أيدينا لربنا. ولذلك جعل النسك مبنيا على سنة إبراهيم عليه السلام الذي شهد بكون الملك لله، فأدى إلى الرب أمانته وصدق بأن كل ما عنده حتى نفسه وولده فهو من الرب تعالى.

والوجه الحادي عشر: أن العبد يتقرب بهما إلى الرب. وذلك ظاهر جدا. فإن الصلاة من أظهر أمورها أنها توجه إلى الرب ورجوع إلى حضرته. فالمصلي يرى نفسه متمثلا بين يدي الرب يناجيه ويخاطبه ويتضرع إليه، ولا يلتفت يمينا وشمالا. فليس أن الصلاة ذريعة التقرب بل هي عين التقرب. ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [سورة العلق/١٩]. ولذلك صارت رأس العبادات.

وأرى أن الصلاة في أصل معناها القربة القريبة، والإقبال على الشئ، والدخول فيه. فيقال للفرس المتصل بالسابق: "المصلي"، وللجالس حول النار بقربها: "الصالي"، وكذلك لمن دخل في حرها.

وهكذا الأمر في القربان. فإن المتقرب يأتي بقربانه إلى موضع يرى

أن الرب قدسه واختصه لعبادته. ولذلك كان للقربان موضع خـــاص. لا يحل في شريعة اليهود أن يقربوا في غير بيت المقدس. وأما المسلمون فكما جعلت لهم الأرض كلها مسجدا، فكذلك يحل لهم التضحية في كل مكان.

ومع ذلك كما أن للصلاة في المسجد فضلا فكذلك فضلا للنسك في المصلى. وقد جعل الله لقربان إبراهيم عليه السلام مكانا خاصا وأبقاه لنا سنة. فنهدى البدن إلى منحره كما نأتي مسجده الذي بناه للصلاة. وكـل ذلك ليرسخ في قلوبنا أنا كالعبيد نسعى إلى المولى ملبين دعوته، مقـربين قرابيننا كلها لمرضاته، وإقرارا لعبوديتنا له. ولذلك سمي القربان قربانا كما سميت الصلاة صلاة. وإلى هذا الذي ذكرنا إلماع فيما قال النبي ﷺ: "سمنوا ضحاياكم فإنها مطاياكم". وبذلك دل أيضا على أن تقريب الإبـل ممـا يخص بهم. راجع الفصل الثاني.

والوجه الثاني عشر: أن الصلاة والنحر أعظم طـرق العبـادات، وأقدمها، وأرسخها في فطرة الناس. فترى السجود والركـوع وتقـديم النذور لإظهار التعبد في كل ملة ونحلة سواء عبدوا الله الواحد، أو آلهـة متعددة، أو روحا، أو صنما، أو عظموا إنسانا كإله معبود.

لاشك أن بين الأقوام المهذبة والوحشية وبين أهل الحق والباطـل فرقا عظيما. وكذلك بين صلاتهم ونسكهم بعدا شاسعا، ولكن مع ذلك لكلهم نسك وصلاة ما. وهذا، كما أنهم مختلفون في مفهوم الإلـه مـع اتفاقهم في أمر عام من مفهوم المعبود. ولا نرى هذا الاتفاق بينهم في سائر العبادات.

وقد مر في الوجه الأول أن الإيمان والإسلام يعمان جميع الخلـق، وأن الصلاة والنسك صورتان لهما. فالآن ترى أن الناس انبعثوا من نقطة

واحدة في الدين والعبادة وإنما تشعبت بهـم الطـرق لـدخول الظنـون والأهواء. فاختلفوا بإفراط وتفريط، وإفساد وتخليط.

(١١)
تفصيل لما ذكرنا من اختصاصنا بهذا العطاء والأمر بالصلاة والنحر معا

قد علمنا أن للصلاة تقدما على النحر كتقـدمها علـى سـائر العبادات. ولذلك قدمها الله في الذكر. ومن تأمل فيما ذكرنا من وجـوه المناسبة بينهما تبين ذلك، وأيضا تبين رفيع محلهما فلا حاجة إلى إعادة ما سبق. ولكن بقي لنا ما دل عليه اختصاصنا بالكوثر، والأمـر بالـصلاة والنحر معا. وذلك ثلاثة أمور:

الأول: فضيلة الملة على سائر الملل.

الثاني: انحصار توبة اليهود والنصارى في قبول هذه الملة.

الثالث: كون المسلمين لا غيرهم ورثة إبراهيم عليه السلام.

وأما بيان هذه الأمور فاعلم أن إهراق الدم كان هو طريق التقرب إلى الله في الأديان القديمة، وكان بمنزلة الصلاة لهم. وإلى هذه مالت اليهود، فلم يذكروا الصلاة أصلا، وذكروا الصوم بالكناية فقط. وذلك لأن طرف العقل كان غير بالغ فيهم حتى يكفيهم محض التوجه بالقلب.

فتقديم الصلاة وجعلها مخ الدين دليل على عروج الديانة. ولكن الطبائع متفاوتة فطرة، حتى أن قوما ولو بلغوا ذروة الحكمة توجد فـيهم أفراد كثيرة على ابتداء المدارج. فمع إلزام الصلاة و تكثيرهـا لم يبطـل الإسلام الذبيح بالكلية، حتى إنه لم يبطل أيضا طرق الأقدمين الذين جعلوا الديانة محض رهبانية. فأبقاها الإسلام في الحج.

فإن صح ذلك رأيت دين النصارى على طرف مقابل لليهود. فإن لهم صلاة فقط، ولا نسك. و ليس لهم أن يدعوا بلوغ كمال الديانة. فإن الكمال هو الوسط. ولا خير في الغلو. ولذلك تراهم أوقعهم هذا الغلو حيث صاروا أسفل من اليهود أيضا في معظم أمر الدين وهو الإيمان، كما أن اليهود أدون منهم في الأعمال.

فلهذه رعاية الوسط ووضع كل شئ محله ترى الصلاة أكثر شئ ذكرا في القرآن، ولا تجد كلمة النحر إلا في هذه السورة. و لم يذكر التضحية إلا تبعا في مواضع معدودة. فبما جمع الله لنا الصلاة والنحر، وبما دل على سرهما وموضعهما ومقدارهما أعطانا من العلم ما نستدل به على فضيلة هذه الشريعة الجامعة على الملل السابقة.

أما المشركون والملاحدة فلا صلوا لله ولا قربوا. وأما النصارى واليهود فليس أنهما حرما ركنا واحدا فقط، بل أفضى أمرهما إلى تمام الحرمان، لما أنهما بقيا على ملة كانت لأجل معدود.

وبيان ذلك أن دين النصارى كان دين التجرد والخمول، واشتغال كل امرء بخصيصاه. فلم يعطوا الجهاد. واقتنعوا بالصلاة والصوم والزكاة وأمروا بأن يخفوها[1]. فمع كون ذلك أصلح بتربيتهم لم يتبين فرائضهم و سننهم، فماتت حتى أنهم ضيعوا كلها فما تأمرهم هذه الأناجيل بصوم ولا صلاة، بل تصرح بأنها مستحبات فقط. وخلاف ذلك تأمرهم بترك التدبير والكسب والانتصار[2]. وإذ ضيعوا قسطا مّما أعطوا ﴿فنسوا حظا مما ذكروا

---

[1] انظر إنجيل متي ٦: ٣-٤ و٦و١٧-١٨.

[2] انظر مثلا إنجيل متي ٦: ٢٥-٣٢ و١٠-:١٠. وانجيل لوقا ١٢: ٢٢- ٣٣، و١٤: ٢٦، ٣٣.

به﴾ [سورة المائدة/١٣] فنشأت في مكانه بدعاتهم المتكاثفة. فزعموا أن النسك إنما رفع عنهم، لأن المسيح صار لهم قربانا. وزعموا حسبما وجدوا في شريعة اليهود أن لا سبيل إلى كفارة ذنب من غير إهراق دم[1]، فزعموا بأن المسيح كفر عنهم[2]. فلزمهم أحد الأمرين، وكلاهما أشنع من الآخر.

وذلك إما أن يقولوا بأن المسيح كفر أيضا ذنوبهم المستقبلة. وقد ذهب إليه طائفة فزعموا أن الإيمان بالمسيح يكفي للنجاة[3] وذلك أشنع إرجاء، و إما أن يقولوا إن الذنوب المستقبلة لا مغفرة لها. وقد ذهب إليه طائفة، واعتقده إمام هؤلاء النصارى بولوس[4]. وذلك أشنع بكثير من شناعة المعتزلة الذين غلوا في خلاف الإرجاء. ذلك.

وأما اليهود فعندهم التصريح بأمرين: الأول أن لا مغفرة إلا لتضحية[5]، والثاني أن التضحية لا تصح إلا في هيكلهم[6]، وقد أخرجه الله عن أيديهم. فقد غلق عليهم شريعتهم باب التوبة غير أن يؤمنوا بالنبي الموعود الذي وكل رجاؤهم إليه وعرفه لهم أنبياءهم.

---

[1] انظر سفراللاوين ، الأصحاح الرابع و ما بعده.

[2] انظر رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٥ و ٥: ٩

[3] رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٨ " إذا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس"

[4] في رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٠ " لأنه بأعمال الناموس كل ذي جسد لا يتبرر أمامه"

[5] انظر سفر اللاوين، الأصحاح الرابع و ما بعده

[6] انظر سفر اللاوين، الأصحاح الأول وما بعده.

و قد حكى القرآن هذا الوعد الإلهي عند ذكر تقصير اليهود عن تحمل الشريعة الكاملة و استغفار موسى عليه السلام. فقال تعالى: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [سورة الأعراف/١٥٦-١٥٧].

ومما ذكرنا يتبين لك أن هذه الآية الواحدة: ﴿فصل لربك وانحر﴾ بكلماتها الثلاث تربو على جميع الأديان. فإن وضعت اليهودية والنصرانية في كفة وهذه الآية في كفة أخرى لترجحت على اليهود بأولها وعلى النصرانية بآخرها وعلى سائر الأديان بوسطها، لكون قرابينهم لغير الله، ولإنكارهم بكون الله ربهم. فإنهم اتخذوا لهم أربابا دون الله الأعلى الأكبر. ومع ذلك دلت بنظمها على أحسن طريق للديانة والسلوك إلى الرب. وهو ذكر الرب والتوجه إليه في كل حال، وبكل صورة، وعلى قدر يناسب الأحوال والأزمنة.

ولما أورث الله نبيه وأتباعه وراثة إبراهيم عليه السلام، وقطع عن هذه الوراثة الخاصة اليهود والنصارى، أمرهم بما يخص هذه الأمة من الصلاة والنحر. فان إبراهيم عليه السلام بنى مسجدا لا مذبحا كما هو ظاهر، وكما قال تعالى: ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ [سورة البقرة /١٢٥] فالصلاة هي الغاية الأصلية. وأما النحر فجعله تذكارا لإسلامه وإسلام ابنه إسماعيل. فجعل موضعه "المروة" التي قرب عليها ابنه البكر. ثم أبقاه سنته لإطعام الحجاج لبيت الرب. ومع أن عبادة اليهودية انحصرت في التضحية لم يجعلوها إلا عبادة ظاهرة خالية عن

الحقائق والإشارات التي هدانا القرآن إليها. وليس عندهم أثر ما ولا قول ما يدل على أن قرابينهم تذكار لذبح اسحق عليه السلام. ثم كتابهم نفسه يبطل دعواهم من وجوه، كما هو مبسوط في موضعه[1].

ولما كان الأمر هكذا حسن اختيار كلمة "النحر" الذي يدل على ذبح الإبل وكانت محرمة على اليهود خاصة [2]. وتفصيل هذا البحث موكول إلى تفسير سورة البقرة وآل عمران. فنحر الإبل ليس فيه نصيب لليهود. فهذه أضحية إبراهيمية مخصوصة بأولاد إسماعيل عليه السلام ببيت الله الذي أسكن عنده هذه الذرية.

(١٢)

في تأويل كلمتين: "شانئك" و" الأبتر "

قبل تأويل الآية الأخيرة ننظر في كلمتين: " شانئك "و" الأبتر ". وأما "الشانئ" فلكونه مضافا إلى المعرفة صار معرفة. ولا يلزم المعرفة أن يكون معينا، ولكن بعض المفسرين حاولوا التعيين واستنبطوه من طريق النظر في أسباب الأمور. فاختلفت أقوالهم فيه، كما يقع كثيرا في مثل ذلك. فروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة أنه العاص بن وائل. وذلك لأنه قال: أنا شانئ محمد [3]. وروى عن شمر بن عطية أنه عقبة بن أبي معيط، لما أنه كان يقول: " إنه لا يبقى للنبي ولد وهو أبتر "[4].

---

[1] انظر تأليفه "الرأي الصحيح في من هو الذبيح "

[2] انظر سفر اللاوين ٤/١١

[3] انظر الطبري ٢١٢/٣٠-٢١٣

[4] المصدر السابق ٢١٣/٣٠

وروى عن ابن عباس وعكرمة ما يدل على أن المراد به قريش[1].

فنقول إن هذا الاسم وإن كان في نفس الأمر أولى برجل مخصوص وكان هو أول داخل في مصداق الآية. ولكن إذ لم يرد الله تفضيحه بالتصريح سكتنا عن تسميته وهذا بفرض إرادة المعين، ولكنها غير لازمة كما مر.

ولا شك أن أسلم الطرق أن نضع زمام الاستنباط في يد القرآن، فنتوجه حيث يقودنا نصه واقتضاؤه ونظمه وسياقه. وقد رأينا في السورة السابقة أن سمت الكلام إلى قريش الذين كانوا أولياء بيت الرب وقد خانوا في أمانتهم. ثم نجد الرواية المؤيدة لذلك أوثقها. ثم دلت الحالات على كون قريش أولى بهذا الاسم. ثم ذلك هو المقتضى للكلام السابق، حسبما بينا من تأويله.

وبناء على ما ذكرنا من الوجوه ينبغي أن يراد به أولا و بالذات قريش، ثم يراد به كل من كان متصفا به. فإن خصوصيات موقع النزول لا تمنع الكلام عن سعة معناه الذي دل عليه. فهذا جملة القول في هذه الكلمة. وسيأتيك لها مزيد بيان إذا شرعنا في تفسير الآية إن شاء الله تعالى.

وأما "الأبتر" فمعلوم أنه صفة من البتر، وهو القطع. وللكلمة استعمالات شتى. والنظر فيها يعينك على استنباط المعنى المراد ههنا. فنذكر استعمال هذه المادة حسب ترتيب معانيها:

يقال: سيف باتر، أي قاطع، وبتار: قطاع. بتر فلان رحمه: قطعها. الأباتر: قاطع الرحم. أبتر الرجل: إذا أعطى ثم منع. الحجة البتراء:

---

[1] المرجع السابق ٢١٣/٣٠

القاطعة. في حديث الضحايا: أنه نهى عن المبتورة، وهي ما قطع ذنبها[1]. الأبتر من الحيات: نوع منها قصير الذنب.

الأبتر: من لا عقب له. في الحديث: " كل أمر ذي بال لم يبدأ ببسم الله فهو أبتر[2]. الخطبة التي لم تبدأ بذكر الله والصلاة على رسوله سميت بتراء[3]. الأبتر: ما لا عروة له من المزاد والدلاء. الأبتران: البعير والعبد. البتيراء: الشمس إذا بهرت وذهبت قرونها ونبلها[4].

فالنظر في هذه الأنحاء يدلنا على أن "الأبتر" هو المقطوع عما يفخمه و يمده، حتى إن الشمس إذا بهرت، وذهبت عنها نبلها، وانجردت قرصا صغيرا سميت بتيراء. وكذلك من بتر رحمه، وانقطع عن عصبته وأنصاره سمي: أبتر. ولذلك سموا البعير والعبد: الأبترين لقلة ناصريهما. وعلى هذه الأصل قال قتادة في تفسير هذه الآية: الأبتر: الحقير الدقيق الذليل.[5] فتبين أن معنى هذه الكلمة تدرج من "المقطوع" إلى الصغير القصير وإلى المخذول الحقير". هذا، والآن نتوجه إلى تأويل الآية بعون الله تعالى.

(١٣)

تأويل قوله تعالى: "إن شانئك هو الأبتر"

لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ جواب ورد على

---

[1] انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٩٣/١

[2] و في النهاية ٩٣/١ " لا يبدأ فيه بحمد الله " و كذا في اللسان (بتر) .

[3] كخطبة زياد بن أبيه المعروفة. انظر البيان ٢: ٦١

[4] انظر اللسان (بتر)

[5] تفسير الطبري ٣٠/ ٢١٢

من طعن في النبي ﷺ أنه أبتر. وهكذا فهمه المفسرون. وأما مراد الطاعن بقوله هذا فيقتضي تفصيلا. فاعلم أن النبي ﷺ بعد ما هاجر إلى المدينة ظن قريش أنه بتر رحمه، وترك أكرم بيت العرب، وحرم ما كان له من شرف ولاية الكعبة وجواره. فصار بزعمهم كشجر قطع عن أصله فيوشك أن يضمحل أمره ويتضاءل قدره. فبشره الله بالبركة والكثرة والفتح والنصرة، وأنه باطل ما زعم عدوه بل إن عدوه لهو المقطوع المخذول. و لما كان هذا الكلام رداً لزعمهم كان فيه تعريض إلى أن عدوه هو ليسلب الشرف الذي يتباهى به. فصار إخباراً بفتح مكة.

وهذا المعنى الذي هو ظاهر من جهة اللغة ونظم الكلام يؤيده ما جاء في الأخبار. قال السيوطي رحمه الله: " أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة. قال: أنتم خير منه. فترلت ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ قالت قريش بتر محمد منا، فترلت ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ وأخرج احمد و غيره عن ابن عباس مثل ذلك.

وأخرج ابن جرير عن ابن بشار قال: حدثنا ابن أبي عدي أنبأنا داؤد بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه فقالوا له: نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا؟ قال: بل أنتم خير منه. فترلت عليه: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ قال: و أنزلت عليه: ﴿ألم

تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا[1]. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ [سورة النساء /٥١-٥٢]

وهكذا في حديث آخر عن عكرمة غير أن فيه: "ونحن أهل الحجيج وعندنا منحر البدن[2]".

والمعنى واحد. فإنهم افتخروا بشرف منبتهم وطيب مغرسهم عند البيت المبارك، وبأن فيهم خدمة البيت وعهد النحر من لدن إبراهيم عليه السلام أصل البركات. وسيأتي بيانه في الفصل[3]...... فزعموا أن المنقطع عنهم كالصنبور المنقطع لا تطول مدة بقائه. وكانوا مطمئنين بهذا الظن الباطل معتمدين على قول رئيس اليهود حتى أزال الله عنهم الغطاء حين علموا أنهم هم المخذولون المقطوعون. وقد وقع ذلك الوعد حين نزلت سورة البراءة، فقطع كل مشرك عن المسجد الحرام.

ذلك، ونذكر بعض ما دل عليه هذه الآية في الفصل الخامس عشر.

(١٤)

موقع نزول السورة ودلالتها على أنها بشارة بفتح مكة

قد مر في الفصول الأولى أن السورة بشارة بفتح مكة، وأن استعمال الماضي في قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك﴾ يدل على إنجاز وعد الفتح

---

[1] تفسير الطبري ٣٠: ٢١٣

[2] المرجع السابق .

[3] انظر الفصل الأخير

الذي قرب. فإنا نرى في القرآن آيات يأمر الله فيها نبيه بالصبر والانتطار، وان الله سينصره. وفي كل ذلك إبهام، مثلا قوله تعالى: ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [سورة الرعد/٤٠]. وأيضا: ﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ [سورة الزخرف/٤١-٤٢].

فلم يتبين للنبي ﷺ هل يكون حاله كحال عيسى عليه السلام توفاه الله قبل النصر، أو كحال نوح عليه السلام أراه الله النصر العظيم، أو كحال إبراهيم وموسى عليهما السلام أراهما الله طرفا من الفتح والبركة ووعد إتمامها عند ظهور البعثة الأخيرة. فكان النبي ﷺ والمؤمنون في ظمأ الرجاء حتى إذا نزلت هذه السورة فلق لهم الصبح وجاءتهم تباشير الفتح. فلا نفهم من هذه السورة إلا أنها نزلت قبيل فتح مكة أو عند فتحها الأول. وهو موادعة قريش عند الحديبية.

ويؤيد ذلك ما جاء من طريق الروايات. قال ابن جرير رحمه الله: "حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني أبو صخر قال حدثني أبو معاوية البجلي عن سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الآية يعني قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ يوم الحديبية أتاه جبريل عليه السلام فقال انحر وارجع فقام رسول الله ﷺ فخطب خطبة الفطر أو النحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها فذلك حين يقول: ﴿فصل لربك وانحر﴾ "[1].

قال السيوطي رحمه الله بعد ذكره هذا الحديث: "قلت فيه غرابة

[1] تفسير الطبري ٣٠: ٢١٢ .

شديدة". ولم يذكر وجه شدة الغرابة اعتمادا منه على ظهورها، لما توهم رحمه الله أن هذا القول يخالف الأمر المشهور من وجوه مختلفة. ولكنها وجوه ناشئة من التوهم زائلة بعد التأمل الصحيح. فلنذكرها مع التنبيه على ضعفها، ليتضح الحق الصريح.

فالأول أن السورة مكية، ويوم الحديبية كان بعد الهجرة. ويرفع هذا الوهم أن السورة التي نزلت بعد الهجرة عند مكة أيضا تسمى مكية، كما صرح به العلماء. والحديبية بقرب مكة، فإن بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل. وهي من الحرم.

والثاني أن يوم الحديبية كان بعد مضي خمس سنين وعشرة أشهر من الهجرة، وقتل كعب بن الأشرف في السنة الثالثة، وقد روى أن قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ كان في الذين سألوا كعبا: أهم خير أم هذا النبي، كما مر في الفصل السابق. فكيف يصح أن السورة نزلت يوم الحديبية.

ويرفع هذا الوهم أن قولهم: " نزل في كذا" لا يدل على الوقت، بل على مطابقة الآية بحال خاص. فقوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ ناظر إلى كل من كان شانئا له سواء فيه من مضى ومن يأتي إلى يوم القيامة. وحين نزلت هذه الآية كان أعداؤه الذين ماتوا بالذلة والهوان مثالا لمن بقي. ولم تنفك قريش بعد مكالمتهم بكعب موقنين بكون النبي كما قال ذلك الفاسق حتى جاء الفتح وتبين أن أعداء النبي هم المخذولون. فمن قال إن آية: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ في قريش الذين زعموا لكعب ما زعموا إنما ذكر مطابقة الآية بحالهم، لا أن الله تعالى رد عليهم طعنهم من غير مهلة.

والثالث أن الآية الأخيرة ناظرة إلى عقبة بن أبي معيط لطعنه في النبي ﷺ بأنه لا يبقى له ولد وهو أبتر. وعقبة هذا أسر في يوم بدر وقتل فيمن قتل من الأسارى. ويرتفع هذا الوهم بما ارتفع به الوجه الثاني. مع أن الآية لا نرى تأويلها إلى هذا الطعن. ولا نرى أن "الأبتر" ههنا: لمن لا عقب له، لسخافة هذا التأويل، ولبعده عن النظم، ولضعفه من جهة الرواية أيضا. فارتفعت الغرابة عن قول سعيد بن جبير، وتبين صوابه.

ثم يوافقه ما روى عن محمد بن كعب القرظي في تفسير الآيتين السابقتين، حيث يقول: "إن أناسا كانوا يصلون وينحرون لغير الله. فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي[1]". فكأنه بهذا القول بين أن قريشا شقوا بهذا الكوثر بأنهم لم يؤدوا حقه، فننزعه عنهم ونعطيكه. فإذا أعطيناك وقد أعطيناك فأد حقه.

ولا يخفى أن الأمر بامتثال حكم متفرع على واقعة يدل على أن الواقعة قد وقعت أو سيقع، كما قال تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ [سورة النصر/١-٣]. فلم يفهموا من ذلك إلا أنها نزلت عند الفتح وعند دخول الناس في دين الله أفواجا. فهكذا نفهم من قول محمد بن كعب رحمه الله: "إذا أعطيناك الكوثر" الخ أي قد أعطيت وقرب ظهوره.

(١٥)

النظر في السورة من حيث مجموعها

إن صح عندك هذا التأويل الذي قدمنا ثم تأملت السورة بمجموعها

[1] تفسير الطبري ٣٠: ٢١١ .

ونظرت في حدود آياتها اطلعت بادي بدء على قضايا آتية:

(١) الأولى أن الله تعالى أعطى محمدا ﷺ وراثة إبراهيم عليه السلام وأظهر فيه إجابة دعائه، فجعل لها ورثة من أمته.

(٢) والثانية أنه قد سلب الله هذا العطاء كل خائن كفور، فإنه ساخط بهم كما صرح به في سورة الحج.

(٣) والثالثة أنه إذ ربط القطع عن هذا العطاء بصفة خاصة دل على علته. فتبين أن عداوة النبي يقطع عن بركة الله.

(٤) والرابعة أنه بما جعل هذا الحرمان مخصوصا بأعدائه دل على أن الفائزين بوراثته هم أحباؤه. فحصلت لنا علامة بين أهل الحق والباطل، والمتبعين لهدى الله وسنة رسوله والزائغين عنهما. فالأبتر من هذه الوراثة داخل في شانئيه.

(٥) والخامسة أنه كما جعل الصلوة والنحر شعار أحبائه جعل تركهما شعار أعدائه من المشركين واليهود ومبتدعة النصارى والمبتدعة من هذه الأمة. فمنهم من يستخف بالصلاة، ومنهم من يستخف بالحج، ومنهم من تسلل عن كل ذلك. فالمضيعون للصلاة والنحر والحج هم الأعداء للنبي، والمقطوعون عن وراثته، والمخذولون كاليهود والنصارى. ولكن في الإسلام بقية من أهل الحق والسنة. ونرجو أن يكثرهم الله ويبعث منهم من يعز به الإسلام، وما ذلك على الله بعزيز. وقد قال عز من قائل: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [سورة محمد/٣٨].

ومما ذكرنا قد تبين أن السورة بشارة بفتح مكة، كما قدمنا في الفصول المتقدمة. وهي أيضا إنذار لأعداء النبي بكونهم مقطوعين عن وراثة

إبراهيم عليه السلام. فأول السورة وآخرها جاءتا على أسلوب المقابلة ووسطها كالبرزخ بينهما ناظرة إليهما. أي من قام بالتوحيد وصلى ونحر أعطى الكوثر، ومن خالف ذلك بتر عنه.

فمثل السورة كميزان ذي كفتين ولسان. ففي كفة خير كثير فما أثقلها! وفي كفة بتر كبير فما أخفها! فتوازنهما كتوازن الوجود والعدم. وكما أن اللسان يتجه إلى الجانب الثقيل فكذلك الآية الوسطى تتجه إلى الآية الأولى، ولذلك وصلهما بالفاء. وجعل الآية الثالثة مفصولة. فدلت بأسلوبها أيضا على قطع أعداء النبي ﷺ عن الكوثر المخصوص بأحبائه.

(١٦)

بشارة الرضوان لأمته ﷺ

قد سبق أن المراد بهذا الإعطاء هو الإعطاء العام للنبي ﷺ وأتباعه، كما أن البتر عام لجميع أعداء النبي. وإذا كان الأمر كذلك فلم تكن هذه البشارة محض غلبة الإسلام على الكفر، بل كانت بشارة رحمة الله على أمة هذا النبي في الدار الآخرة. فعبر عن هذا الفتح بإعطاء الكوثر إياهم في القيامة. فلما وقع ما بشرت به السورة ظهر أنهم صدقوا الله ورسوله، فاجتباهم، وامتحن قلوبهم فرضي وأرضاهم.

وقد علمنا من تاريخ الأنبياء، ومن تصريح القرآن أن أول النبوة زلازل وصبر، وآخرها بركات وأجر. فصار فتح مكة برهانا على كونهم أولياء بيته، وشهداء دينه، وخلفاء أرضه. فكان إنجازا لما وعدهم في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد

ذلك فأولئك هم الفاسقون. (فبشر بإنجاز هذا الوعد بقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فتشابه القولان. ثم تجد المشابهة فيما أتبعه قوله:) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (فإن ذلك تشبه قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾) ﴿وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ [سورة النور/٥٥-٥٦]. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، كما سياتيك بيانه.

وكذلك سورة الفتح بتمامها تخبرنا عما جعل الله لهذه الأمة من الرحمة والسكينة والمغفرة والتمكن في الأرض المقدسة. وهكذا جاء في صحف الأنبياء لا سيما في الزبور، وأمثال سليمان عليه السلام. وقد أشار القرآن إليه حيث قال: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [سورة الأنبياء/ ١٠٥]. أي الأرض المقدسة التي هي مثال لأرض الجنة.ومكة أفضل هذه الأرض وأقدمها، كما ذكرنا في تفسير سورة آل عمران وسورة الفيل.

فعند نزول هذه السورة جعل يتبين إنجاز وعد الوراثة حتى أتمها الله. فنزع الله تعالى أرضه المقدسة عن أيدي الكفار، وأورثها المسلمين. وبذلك بشرهم بأنهم عباده الصالحون ومصداق قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وأنه جعلهم خلفاء في الأرض وارثين لها، ومكن لهم دينهم، ونفى عنهم الأعداء طرا.

وبذلك صدق في هذا النبي ما بشر به موسى عليه السلام بني إسرائيل من أن النبي الموعود إذا جاء طهر الأرض المقدسة عن الكفار. ولم يصدق ذلك في أحد ممن جاء من الأنبياء والملوك في بني إسرائيل كما تشهد به ما بأيديهم من صحفهم المقدسة. ولذلك كانت اليهود تنتظر لمن يطهر الأرض المقدسة من الكفار، كما قال تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند

الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [سورة البقرة/٨٩]. فهذه السورة إبان ظهور تلك البشارة حتى طهر الله الأرض المقدسة عن أعدائه.

(١٧)

برهان دائم متصل على صدق نبوة محمد ﷺ

قد مر أن السورة أعلنت بأن بناء القطع عن الكوثر هو شنآن النبي ﷺ، فصار إخبارا بأمر متصل دائم. وإذ ليس في حد بشر أن يبشر بدوام سلطنته على أرض، وقطع عدوه عنها، فإن الدهر لا يبقى على حدثانه ملك ولا جيل. فكم منهم طار ثم وقع والتقمه الدهر وابتلع.

فهذه النبوة الصريحة التي نزل بها القرآن مع كونها بشارة عظيمة صارت لنا برهانا دائما متصلا على صدق النبي ﷺ. وذلك أقوى دلالة من نبوات قضت نحبها، مثل ما جاء من نبوة عيسى عليه السلام: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ [سورة آل عمران/٤٩]، ومن نبوات منتظرة لم يقع إلى الآن مثل نبوات دانيال وحز قيل. والنبوة المتصلة أحرى بصاحب البعثة الباقية. فإن الله تعالى لما جعله خاتم الأنبياء صدق فيه كثيرا من نبوات من قبله، ومنحه حججا دائمة متصلة. ومن عظم النبوة أن يكون خرقا للأسباب الظاهرة. وقد مر أن السورة أنزلت يوم الحديبية الذي كان الغلب الظاهر فيه للكفار، كما يظهر من شرائط الصلح، حتى أن بعض الصحابة أظهر للنبي كراهية لما جرى به الصلح. وأنكر بعضهم صورة الكتابة حين أمره النبي بمحو بعض ما كتب.

فتبين أن هذه النبوة لم تكن مما يتوقع وينتظر من الأسباب الظاهرة. وذلك مثل إخبار النبي بغلبة الروم بعد بضع سنين مع شدة دلالة الأسباب

الظاهرة على خلافه، كما بيناه في موضعه.

وقد ذكر موسى وعيسى عليهما السلام من خصائص هذا النبي أنه يخبرهم عما يقع عن قريب حتى يعرفوا أنه هو الموعود، كما جاء في التثنية ١٨: ١٨-٢٢: "[١٨] أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به [١٩] ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. [٢٠] وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي [٢١] وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب. [٢٢] فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه".

وكما جاء في إنجيل يوحنا، ١٦: "[١٣] وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية".

فوقع فتح مكة بعد نزول هذه السورة بيسير. ودامت واتصلت هذه النبوة في حق المؤمنين الصالحين بشارة، وفي حق أعداء النبي إنذارا. فجاءت هذه البشارة جامعة لوجوه من البرهان على صدقه والحمد لله العلي الكبير.

(١٨)

تصديق ما وعد الله إبراهيم عليه السلام من عموم البركة.
وفيه المشابهة بين إبراهيم ومحمد عليهما أتم الصلوات

قد تبين مما ذكرنا في الفصول السابقة أن الله تعالى أعطى الخير

الكثير لنبينا وأحبابه، وقطع عنه أعداءه. ففي ذلك تصديق لما وعد الله إبراهيم عليه السلام من أن جميع أهل الأرض يباركون بنسله، ويبارك الله مباركيه ويلعن لاعنيه[1]. فهذان أمران. والأول يضاهي قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ والثاني يضاهي قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾. وفي كلا الأمرين مشابهة عظيمة بين محمد وإبراهيم عليهما الصلوات.

وبيان ذلك أن الله تعالى قد قضى بحكمته ورحمته أن يجمع البركات مع إبراهيم عليه السلام. فإنه صار وارثا لها بعد نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [سورة آل عمران/٣٣]. فاصطفى الله تعالى آل إبراهيم فقط بعد نوح عليه السلام، فإن آل عمران أيضا من ذرية إبراهيم. ثم بوسيلة إبراهيم عليه السلام وعد الله شمول البركات جميع أهل الأرض. فقد جاء في سفر التكوين ١٢: ١-٣: "[1] وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك[2] فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة.[3] وأبارك مباركيك ولا عنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض.

وهذا في قصة هجرة إلى موضع المروة التي قرب عليها ابنه إسماعيل عليه السلام. فأشار إلى أن عموم البركة يكون بذريته، كما صرح به في موضع آخر. فقد جاء في تكوين (٢٢: ١٦-١٨): "بذاتي أقسمت يقول الرب اني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. [17] أباركك مباركة...... [18] ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي".

---

[1] انظر سفر التكوين ١٢: ١-٣ .

فصرح بأن أصل البركة هو تقديمه ابنه قربانا. فمع أن البركة عمت ذريته من إسحاق عليه السلام أيضا، فإن ينبوعها كان في ذرية إسماعيل الذي قربه. ثم دل على حقيقة هذا السبب في موضع آخر. فقد جاء في سفر التكوين (١٨: ١٨-١٩): "وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. [19] لأني عرفته لكي يوصي ابنه وبنيه من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برّا وعدلا لكن يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به". أي البركة التي وعدها لإبراهيم عليه السلام.

فعلمنا أن حقيقة الدين الذي أعطى إبراهيم عليه السلام هي البر والعدل. والآن فانظر كيف صدق الله هذه الأمور ببعثة نبينا ﷺ. فإنه تعالى بعثه من هذا الموضع الذي كان أصل البركات. ثم أعطاه إياه وأورثه شريعة البر والعدل، فجعله وارثا لإبراهيم عليهما الصلوات، وصدق فيه عموم البركة لجميع أهل الأرض لما أنه بعثه لكافة الناس، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ [سورة سبا/٢٨]. وأيضا: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٧].

فبما جعل الله نبوته شاملة لكافة أهل الأرض جعل البركة شاملة لأتباعه الذين يباركونه وهم الذين يباركون إبراهيم عليه الصلوات. وفيه تصديق ما وعد إبراهيم عليه السلام "وأبارك مباركيك". وذلك بأن المباركة: هي دعاء البركة والخير في الأهل والذرية،. فمن بارك رجلا بارك ذريته ومن بارك ذريه رجل فقد باركه بذلك. فظهر من ذلك أنا نبارك إبراهيم عليه السلام حين نصلى على محمد ﷺ، وكذلك نبارك ذرية محمد ﷺ وأهله حين نصلى عليه. ولذلك نقول في الصلاة: "اللهم صل على محمد ﷺ وعلى آل محمد ﷺ كما صليت على إبراهيم عليه السلام وعلى آل إبراهيم عليه السلام".

أي بما أنك صليت على إبراهيم عليه السلام وآل إبراهيم عليه السلام فصل على محمد ﷺ وآله إنجازا لوعدك.

ولا نجد هذا الأمر بالمباركة لغيرنا، فإن الله تعالى أمرنا بذلك، فقال: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ [سورة الأحزاب/٥٦]. ولذلك نختم صلواتنا كلها بهذه المباركة.

وأما اليهود والنصارى فلا يرون الصلاة فريضة، وإذا صلوا فلا يباركون فيه على إبراهيم ولا على أحد من ذريته. فصارت المباركة شعار أمة محمد ﷺ، لأنا في تشهدنا نفوض الصلوات الطيبات أولا لله تعالى، ثم نسألها لجميع عباده الصالحين، ونذكر بالخصوص نبينا وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعترافا لحقهما علينا. وذلك من البر والعدل الذين بهما تنزل البركات، كما مر.

ثم من تصديق عموم بركة هذه الشريعة أن الله تعالى أمرنا بها بالبر والعدل لجميع الناس. فقد قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم عن دياركم (أي الذين هم ليسوا أعداء البر والعدل) أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [سورة الممتحنة/٨]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [سورة المائدة/٨].

وكذلك تجد العموم والتساوي بين جميع الناس في جزئيات أحكام هذه الشريعة الكاملة، كما هو مبسوط في موضعه.

ولا يخفى أن الكعبة أقامها الله تعالى للبر والعدل، لأنها بنيت على

التوحيد والذكر والشكر لله تعالى، والمواساة بالناس. وقد علمنا القرآن أن التوحيد رأس العدل، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [سورة لقمان/١٣].

وقد بينا فيما مر أن الصلاة والنحر للتوحيد والذكر والشكر والمواساة، فكل ذلك طرق البر والعدل. فهدينا من هذه الجهة أيضا إلى أن الكعبة هي منبع البركات، لكونها مركزا لتعليم البر والعدل. وكذلك رأينا في هذا الفصل أن الله تعالى بارك إبراهيم عليه الصلوات بوسيلة هذا البيت. فهذه الأمور أيضا تدل على أن الكعبة هي ينبوع الكوثر.

وهذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة على جميع عباده الصالحين.

تفسير سورة الكوثر

فهرس مطالب الفصول